الدكتاتورية والرجل العظيم

للأستاذ موريس

المؤلف الفرنسي المجيد

لما سئل صولون ، هل منح الاثينيين أفضل الشرائع ، أجاب :— «منحتهم اصلح الشرائع لهم وللعهد الحاضر» . وليس ثمة دستور كاملٌ في ذاته ، مفصولاً عن عصره والاحوال التي نشأ فيها . بل ليس ثمة رجل مفكر يستطيع ان يدعي بأن الدكتاتورية عدوٌ للامة في كل الاحوال على الاطلاق . ففي زمن الخطر المحدق والفوضى الشاملة اذ تقتضي المصلحة الوطنية اجتناب التفرقة والتشتت في القوى الوطنية ، وتوجيهها الى غرض واحد معين ، قد يكون من الصالح قيام زعيم فرد . فبونابرت في منصب القنصل الاول اصلح فرنسا التي كانت الجمعيات التأسيسية قد أنضبت دماءها . اما السماح لرئيس الدولة ان يكون في أيام الرخاء والسلام أقوى مما يجب ان يكون ، فقد يفضي الى الحنق والتهوُّر . فهو كالآلة القوية التي تحتاج الى منفذ لطاقتها ، تراه مدفوعاً الى خلق الحاجات في قلوب شعبه لكي يحسّ بضبطة تاليتها وتحقيقها . في هذه الحالة تصبح الدستراطية رمزاً مما تنطوي عليه من التحاسد والتجادل ، مرغوباً فيها ، ويصبح الوطني الصحيح ، الذي أيّد الدكتاتورية قبل عشر سنوات ، محمولاً على مقاومتها

ومع ذلك ، تجيء على كل امة ازمات في تاريخها ، تحسُّ فيها مدفوعةً بأسباب معقولة ، الى اقامة رجل عظيم على رأسها . ولما كان وجود هذه الازمات في تاريخ الامم ، لا يحتاج الى دليل ، فعلينا ان نوجه الى أنفسنا الاسئلة التالية:— هل تستطيع الشعوب في احوال من هذا القبيل ان تجد الرجل العظيم ؟ هل ثمة عقول ونفوس ، متصفة بصفات تجعلها متفوقة على سواد الشعب ، حتى لتسلّم الجماهير بالخضوع لسلطتها المطلقة ؟ واذا كان وجود رجال من هذا القبيل مستطاعاً فما هي المزايا التي تعدّهم للدكتاتورية . ولنا على ذلك ثلاث ملاحظات اولية :

اولاً — ان عظمة الرجال كائنة ما كانت ، لتعجز عن الظهور اذا لم تسعفها الاحوال . وليس علينا الاّ ان نفحص قائمة الرجال الذين حكموا بلدانهم حكماً مطلقاً ثم نسأل كيف ظفروا بالقبض على أعنّة السلطان

لدينا في المقام الاول اولئك الذين ولدوا امراء او ملوكاً فتمكنوا تدريجاً من تحويل سلطتهم الموروثة الى سلطة مطلقة . ولعل أفضل مثل على ذلك الملك لويس الرابع عشر . كان ابن ملك ضعيف ذلك ان الملك لويس الثالث عشر كان اضعف شأناً من رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية ! اما لويس الرابع عشر فلم يلبث ، وهو أذكى عقلاً وامضى ارادة من ابيه ، حتى أصبح دكتاتوراً متوجاً . ولكنهُ ما كان يستطيع تحقيق ذلك ، لو لم يكن ابن ملك .

ثم هناك رجال احرزوا ظفراً حربيًّا باهراً ، في فترة عصيبة من تاريخ بلادهم ، ثم أثبتوا مقدرة ادارية فتمكنوا من الاحتفاظ بسلطتهم الذي احرزوه في ميدان الحرب . والقائد المظفَّر ، الذي تحوَّل دكتاتوراً ليس بالنادر في التاريخ . فسوليون وقيصر أشهر الامثلة على ذلك وفي العصر الحديث نجد بلسوردسكي في بولونيا ، ومصطفى كمال في تركيا . فمصطفى كمال في نظر الاتراك رئيس الدولة ، لانهُ القائد المظفَّر — الغازي — وفي عهد الديمقراطية الاتيقية ، كان الظفر الحربي عاملاً من أقوى العوامل في قيام دكتاتور وسقوط آخر . ذلك انهُ اذا تطرَّق الخوف والجزع الى نفس الشعب ، استطاع الرجل الذي ينقذهم ويعيد الى نفوسهم طمأنينتها ، ان يحتفظ بهيبتهِ ومقامهِ زمناً طويلاً . ومنذ ما نشأت الامبراطوريات الاستعمارية رأينا قيام حكَّام كبار في المستعمرات ، يعود قيامهم لشهرتهم الحربية . فالمرشال ليوتي ، الذي كان اسماً ممثل الجمهورية الفرنسية وخادمها ، كان في الواقع مدى سنوات ، الحاكم المطلق في مراكش ، وكان لهُ من الاثر في تنظيم البلاد ، اكثر من اي دكتاتور وطني . وما يقال عن ليوتي ، يقال كذلك عن بعض الحكام البريطانيين الاستعماريين

واخيراً يبلغ بعض الرجال الى مقام السلطان المطلق ، لانهم استطاعوا في ازمة نفسية من ازمات شعوبهم ، ان يتصرفوا ، كممثلين لرغبات الشعب وعقائده ، واقصد بذلك ان نجاحهم لا يعود في الغالب ، الى قيمة آرائهم الذاتية بقدر ما يعود الى ظهورهم في الوقت الذي يحتاج فيه الشعب الى من يرشده وينطق بلسانهِ . هؤلاء الحكام ، يكونون في الغالب ثوَّاراً ، اذا كانت آلام الامة التي يعبرون عن شعورها ، ناشئة عن فساد الطبقات الحاكمة وانحطاطها . كذلك نودي بالرفيق لينين منقذاً لأمتهِ من حكومة القيصر ، وكذلك كان كرمويل الدكتاتور الديني الذي كفى ما يجول في صدور الشعب الانكليزي حينئذٍ من نزعة بورتانية . ولكن اذا خدعت الامة واسيئت بثوَّار قوَّالين فقد يكون الدكتاتور من الطراز الارستقراطي . فوسوليني افلح في زحفهِ على روما لان الشيوعيين حاولوا ان يحكموا ايطاليا بعيد الحرب بالارهاب . واستقبل نوليون استقبالاً عظيماً ، لان الديركتوار كانت قد اثبتت عجزها خلال السنوات العشر السابقة ، فتاق الشعب الى حكومة مستقرة . لا ريب ان نوليون من العباقرة ، ولكنهُ لو انه حاول القبض على أعنة السلطة سنة ١٧٩٠ لما كان الشعب لا يزال عاجزاً عن ادراك نتائج الثورة ، لباءَ بالخيبة . ذلك ان الدكتاتورية تقوم على ركنين هما الاحوال الموائية وصفات الدكتاتور نفسهِ

ثانياً — لا بدَّ للدكتاتور من قوة يستعملها للبطش . فهو لا يستطيع الاحتفاظ بالسلطان اذا خاصمهُ الجيش . ففي الثورتين الفرنسية (اواخر القرن الثامن عشر) والروسية (سنة ١٩١٧) انتقلت سلطة الجيش الى صفوف الشعب . وموسوليني فاز بتأييد الميليشيا الفاشستية التي نظمها ، والجيش الايطالي الذي احتفظ ما كان قد وُجّه اليهِ من عبارات التنديد والتقريع . ومصطفى كمال استطاع ان يحقق أعجب الاصلاحات الاجتماعية لان جنوده كانوا مبثّين في كل مكان . اذا صحَّ هذا فهل يتعذَّر قيام دكتاتورية تستند الى قوة معنوية متفوقة ؟ من الصعب الردُّ على هذا السؤال . اذ لا بدَّ للرجل من خصوم بلغ ما بلغ من مراتب الكمال . فزعماء الاحزاب القديمة يتصدَّون لهُ والمتظلمون الى مناصب الحكم يناوئونهُ . فقد يعتمد على قوة العامة بعد تحوّلها الى قوة مسلّحة . ولكن لا بدَّ لهُ على اي حال ، من ان يكون قادراً على قيادة الفرق المسلّحة . وتذكُّر هذه الحقيقة لهُ شأن خطير ، لانهُ يدلّنا على ان مسألة الرجل العظيم تحتجب وراء اعتبارات متنوّعة في بحث صفات الدكتاتور . فالدكتاتور يجب ان يتصف قبل كل شيء ، بمقدرته على خلق القوة المسلّحة وقيادتها . وهذا الشرط يزيل من قائمة الدكتاتوريين معظم الرجال العظام ، فافلاطون وداني ونيوتن وجوته كانوا بلا شك اعظم عبقرية من نبوليون بيد ان نبوليون كان يستطيع ان يقود الجيوش ، وكذلك كان سلاّ وقيصر من قبلهِ

ثالثاً — الاخصائي العظيم ليس بالرجل العظيم ، وكثيراً ما نخلط بين الاثنين في حديثنا اليومي . فنقول مثلاً ان لامارتين وشاتوبريان ، كانا رجلين عظيمين . ولكن الاصح ان نقول انهما كانا كاتبين عظيمين . وبين القولين فرق شاسع . وقد ثبت ذلك لما حاول الجمهور ان يجعلهم رجلين من رجال السياسة . فقد كانا متصفين بأرفع الصفات العقلية ، ولكنهما اخفقا لانهما لم يخلقا للقيادة . ومن المتعذر ان نتصور اناتول فرانس او اينشتين او السر جوزف طمسن ، رئيساً لدولة . حتى الذين كتبوا في السياسة من الجهة النظرية ، اخفقوا في ميدان السياسة العملية ، مثل مكيافلّي ورنر . فلما اتجه الفكر في خلال الحرب ، الى اقامة رجال المثل العظام على منصة الدكتاتورية بدؤا بالاخفاق . والجندي في الغالب رجل تعوَّد ، النظام ، لذلك يحسُّ قلقاً ان لم يكن فوقهُ ضابط اعلى منهُ او حكومة ، تصدر اليهِ الاوامر . فاذا وجّه الى غرض معين فالراجح انهُ يبلغهُ ، ولكن لا يهمّهُ ان يختار الغرض نفسهُ . خذ مثلاً على ذلك المارشال فوش . فقد كان يجزع من السياسة وقد احسن هندنبرج في رآسة الريخ ، لان نفسهُ ليست نفس دكتاتور . بيد ان الرجل العظيم من طراز نبوليون الذي يجمع بين قيادة الجيش ورآسة الحكومة يختلف عن الاخصائي . فلنحاول ان نجلو الصفات التي ميّزتهُ عن سائر الرجال

الصفة الاولى التي يجب ان يتصف بها الدكتاتور هي صفة الارادة القوية . وهي من اندر الصفات . فالرجال الذين يتصفون بقوة العقل كثرٌ ، ولكن المتصفين بقوة الخلق نوادر . اذ ما الفائدة من ان

تعرف ما يجب ان تفعل اذا كنت لا تملك الجرأة على تنفيذه. فاذا حاول رجل ضعيف الخلق القيام ببسط الاصلاحات و كثرها ترقماً ،مسني بالخيبة . ذلك ان الانسانية كتلة جامدة في مجموعها . فاذا شئت ان تحركها حملها على الحركة ، وحب تنشيط الارادة الدافعة عليها ، والتدرع بالعزم لتذليل جميع العقبات وتحطيمها .فالرجل المتصف بالخلق القوي ، يفوز في النهاية بكل ما يريد . ولو ان مؤرخاً تنبأ من ١٥ سنة بان رجلاً في تركيا يحدث فيها من الانقلاب الاجتماعي والاداري ما احدثهُ مصطفى كمال لوصف بالحمق ، ولكن مصطفى كمال حقّق كلّ هذا لان ارادتهُ كانت لا تعرف الرحمة ، ولان الاتراك ادركوا انهُ لا يحجم عن هدم كل حائل في سبيل تحقيق اغراضه . والناس في الغالب ، يغتبطون بمظاهر الارادة القوية ، وقلّما يحجمون عن شيء اذا احسّوا ان زعيمهم يحسن قيادتهم

والعقل يلي الارادة . وعقل الدكتاتور يجب ان يكون بسيطاً قادراً على ادراك المشكلات الكبيرة اذ تعرض لهُ . فاذا كان عقله دقيقاً يميل الى حل المسائل الى اوليتها ، فقد يرى العقبات التي تعترض سبيلهُ جليةً وهذا يشلّ ارادتهُ . وتفصيلات كل خطةٍ يرسمها الرجل العظيم معرّضة للنقد . بيد ان العقل الذي تشغلهُ الدقة ، تقهرهُ التفصيلات . فالزعيم العظيم لا يرى التفصيلات . ولا هو اخصائيٌّ في موضوع ما . يهتم بكل مسألةٍ ولكن اهتمامهُ متجهٌ الى ارشاد الجهد الذي ينفق في تلك المسألة . يحيط بهِ الاخصائيون وهم الذين يعنون بالتفصيلات . قيل انهُ لما سأل احد الوزراء المارشال ليوتي عن المدافع قال عندي رجالي الفنيون . فسئل وماذا تفعل . فاجاب: انا ؟ انا الرجل الفنيُّ المختص بالآراء العامة

غير ان الدكتاتور لا يستطيع ان يحرّر نفسهُ من الاستعباد للتفصيلات الاّ على شرط واحد . يجب ان يثق ثقةً عظيمة بمساعديهِ واعوانهِ . واذا يجب ان يكون قادراً ان يحيط نفسهِ بجماعة من المؤيدين تتصف بالامانة والجدارة . فليس في التاريخ رجل عظيم من الرجال الفعّالين ، الاّ عرف كيف يختار معاونيهِ ، رجالاً يخلصون لهُ ولآرائهِ ولا يخونون . فالارادة والمقدرة على اختيار الرجال هما الصفتان الاساسيتان في خلق الدكتاتور . والثانية تنطوي على صفات عجيبة ، مثل فهم الرجال وسبر غورهم بلحظة شاردة ، والعطف الذي يجذب الناس اليهِ ويحببهُ اليهم ، وسعة الصدر التي لا تفسح الى الحسد ، وتسرع الى جزاء المحسن على احسانهِ . وكما افلح نوليون في بث روح الاخلاص في قوّادهِ ، كذلك اخضع ليوتي مراكش بمساعدة ضبّاطهِ . وموسوليني مدين ، باستقرار نظامهِ الى نشاطهِ في ضمّ من يتوسم فيهِ الكفاءة الى بطانتهِ

اذا اجتمعت هذه الصفات في رجل فقد يجعلهُ اجتماعها فيهِ رجلاً عظيماً . ولكنهُ قد لا يكون رجلاً فعّالاً . اذ يلزم ان يكون الرجل الموهوب هذه الهبات العالية ، قادراً على تطبيقها تطبيقاً فعّالاً . يجب ان تحرّكهُ شهوة السلطان . فالعمل في حياة الدكتاتور كالآلة في حياة الفنّان أبداً يتجه الى خلقها